الدَّيْن باب الخراب

الاجتماع الانساني جسم حيٌّ نامٍ متحرك وهو عرضة للقوة والضعف والراحة والتعب والصحة والمرض . ويعتري بعض اعضائهِ داءٌ عقام يذهب براحتهم ورفاهتهم ويقلُّ ايديهم عن العمل ويغادرهم عيدًا وهم من اهل السيادة وهو داء الدَّيْن الذي خربت بهِ بيوت كثيرة وتورطت فيهِ بعض الممالك فاستُنزفت ثروتها وزالت قوتها . وهو كغيرهِ من الادواء الكبيرة يصيب اهل الجاه والوجاهة اكثر مما يصيب الفقراء والصعاليك

ويومَ ينتشر الدَّين في بلاد ويعمُّ الجانب الكبير من اهاليها يفسد نظامها وتضعضع احوالها لان المديونين من اهاليها يصيرون عبيدًا للدائنين ويضطرون ان يخلوا لهم عن املاكهم ويعيشوا فيها أُجَراء فيضعف شان الزراعة والصناعة لان الاجير لا يجتهد في عملهِ كالمالك . وبضعفها تضعف البلاد وتفتقر وتكثر الويلات على اهاليها

وتجنُّب الدَّيْن مقدور لكل انسانٍ اذا قصر نفقاتهِ على دخلهِ . اما المال المستدان لغرض تجاري فليس من هذا القبيل بل هو كالبضاعة التي يتجر بها قصد الربح . ولوازم الطعام والشراب واللباس ونحوها رخيصة وقلما يوجد رجل سليم لا يقدر على اكتساب ما يفي بحاجاتهِ الضرورية وحاجات ثلاثة او اربعة معهُ . والذين يستدينون ويتوغلون في الدَّين ليسوا من الفقراء العاجزين عن اكتساب ما يقوم بحاجاتهم الضرورية بل من الاغنياء والمتوسطين الذين لو انصفوا انفسهم وذويهم وعاشوا بالاقتصاد لا بالاسراف لاستغنوا عن الدين وجمعوا مالاً يغنيهم عن سؤال الناس وقت العطلة والمرض

ايُّ رجل من المتأخرين حاز الشهرة التي حازها الفيلسوف باكون الانكليزي الذي يكنى ابا الفلسفة الحديثة ومع ذلك فقد اضطرهُ الاسراف الى الدَّين واضطرَّهُ الدَّين الى اخذ الرشوة فعُرِف امرهُ وانحطَّ مقامهُ والبس لباس الذل والعار ولم تغنِ فلسفتهُ وديانتهُ عنهُ شيئًا لان الدَّين داء يجرُّ ادواء لا شفاء لها

والناس اخوان مَن دانت له نعمٌ والويل للمرء ان زلت بهِ القدمُ

وايُّ رجل بين رجال السياسة والاقتصاد فاق الوزير بت الانكليزي الذي اصلح ماليَّة المملكة كلها في اضيق الاوقات ومع ذلك فقد كان مسرفًا في مالهِ متوغِّلًا في الدَّين ومات مديونًا باكثر من اربعين الف ليرة مع ان دخلهُ السنوي لم يكن اقل من ستة آلاف ليرة

والخطيب فكس المشهور في السياسة تعلّق على المقامرة والدين حتى قامر مرةً مدة اربع وعشرين ساعة متوالية فخسر فيها احد عشر الف ليرة

وكم في هذه البلاد وغيرها من البلدان الشرقيّة من الوزراء والامراء الذين اذا سمعتَ عن دخلهم السنوي ظننتَ ان ثروتهم لا يمكن استنزافها ثم اذا تفحّصتَ امورهم وجدتَ ان اسرافهم قد غرّقهم في بحار الدين حتى يكاد دخلهم لا يفي برباهُ . والدراهم عياله لا يبرأون منهُ . الاّ انهُ قد يُلتمس لهؤلاء عذر وهو انهم ولدوا في النعم وربوا على الاسراف وهم لا يتعبون في اكتساب المال فلا يعتبرون لهُ قيمة ولكن ما عذر الذين يشتغلون النهار والليل ليكسبوا الدينار الواحد ثم يستدينون دينارًا آخر ويبذلونهما معًا على ما لا طائل تحتهُ ككثيرين من اصحاب الصنائع والحرف ومستخدمي الحكومة . وما هو عذر الشعراء والبلغاء ونحوهم من قادة الافكار كلامرتين الشاعر الفرنسوي واللورد بيرون الشاعر الانكليزي وامثالهما فان لامرتين كان يربح من كتاب واحد من كتبهِ مئتي الف فرنك كل سنة ولكنّ الدراهم كانت تخرج من يدهِ كالزئبق فبلغت ديونهُ ثلاثة ملايين فرنك ولم يغيّر نسق معيشتهِ

ويقال ان رجلاً من المعجبين بلامرتين اكتتب بمبلغ من المال لاجل ارجاع املاكهِ اليهِ ولم يكن من ذوي اليسار ولكنهُ ضيق على نفسهِ اعجابًا بهِ . وفي ذات يوم كان واقفًا في سوق السمك وهو ينظر الى سمكة كبيرة غالية الثمن ويراجع نفسهُ في ابتياع قطعة صغيرة منها وكأنّ لسان حالهِ يقول مالي ولهذا الاسراف فالسمك الرخيص يغني عن الثمين . فدخل لامرتين ونظر الى السمكة وقال لصاحبها ابعث بها كلها الى بيتي ولم يساومهُ بثمنها . ولم يكن الرجل يعرف لامرتين فسأل مَن هذا فقيل لهُ هذا لامرتين فذهب في طريقهِ وهو يقول انا اضيّق على نفسي لا تصدّق على هذا المسرف وهو يبتاع سمكة كبيرة بلا مساومة وانا لا استطيع ان ابتاع قطعةً منها . وما هذه اول مرة تصدّق فيها المفتراء على المسرفين

وغولد سمث الكاتب الانكليزي الشهير كان من المسرفين الكبار فجمع لهُ بعض اصدقائهِ مبلغًا من المال لكي يذهب الى احدى المدارس ويتعلّم الشريعة فانفق المال كلهُ على الطريق . ثم تعلّق على الانشاء فربح من التأليف والتصنيف ثمانية آلاف ليرة في اربع عشرة سنة وفي تساوي الآن ثلاثين واربعين الف ليرة ولكنهُ عاش مديونًا ومات مديونًا لكثرة اسرافهِ

والشاعر الخطيب شريدن الارلندي كان من المسرفين الكبار فتزوج امرأةً معها الف وخمسمئة ليرة فانفقها في ستة اسابيع ثم تزوج باخرى معها خمسة آلاف ليرة ونظم رواية ربح بها خمسة عشر الف ليرة ولكنهُ لم يلبث طويلاً حتى بذر هذه الاموال كلها . وكان وهو ينفق الالوف

يبتاع حاجاتهِ الضرورية دينًا . ومات في الفقر المدقع ولم يكن عندهُ ما يسدُّ بهِ رمقهُ مع انهُ كان عشرًا للعظماء . ويقال انهُ لما كان المدايونون يقفون على بابهِ كان يختفي منهم فيخطفون اللحم من قدورهِ واذا خرج الى وليمة لا يركب مع ابنهِ في مركبة واحدة بل يركب كلٌّ منهما مركبةً للافتخار والابهة . والجنون فنون والله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيروا ما بانفسهم

واللورد بيرون الشاعر الشهير الذي يفضلهُ قوم على شعراء الارض لم يبلغ اشدَّهُ حتى بلغت ديونهُ نحو عشرة آلاف دينار . وكان يربح من مصنفاتهِ ارباحًا كثيرة ولكن الاسراف كالنار يفني كلَّ شيء والدَّين كالزيت للنار يزيدها اضطرامًا ويسهل الاسراف على المسرفين . فلم يتخلص من رقة الدَّين الاَّ بالموت

والناس متفاوتون في تحمُّل الدَّين فبعضهم لا يجد منهُ بأسًا ولا يشكو ضيمًا وبعضهم يخر الدين عظامهُ كالآكلة فيوردهُ حتفهُ قبل حينهِ . فالسر ولتر سكوت مصنف الرواية التي لخصنا منها رواية قلب الاسد اشترك مع اناس في عمل كبير فانكسروا ولحقهُ من خسائرهم اكثر من مئة الف ليرة ولم يكن عندهُ ما يفي بهذا المبلغ الكبير لانهُ كان اصلاً من الفقراء ولما زاد دخلهُ كثيرًا كان ينفقهُ كلهُ باسرافهِ وحبهِ للابهة والعظمة . فلما بلغهُ خبر انكسار شركائهِ قال اذا ابقاني الله في قيد الحياة وفيت كل درهم مما لحقني من الدين . فتساهل معهُ المدايونون وعرضوا عليهِ ان يأخذوا منهُ جانبًا من الدين ويسامحوهُ بالباقي فابى وقال لا بدَّ من ايفائهِ كلهِ . وباع بيوتهُ وعقاراتهِ واعطاهم ثمنها وجعل يؤلف الكتب ويعطيهم دخلها فالف تاريخ نبوليون بونابرت في تسعة مجلدات وانهُ في ثلاثة عشر شهرًا واخذ عليهِ من الدين طبعهُ اربعة عشر الف ليرة انكليزية ولم يمض اربع سنوات حتى وفى نحو سبعين الف ليرة من ذلك الدين ولكنهُ اصيب بفالج من فرط الجهد العقلي وشدة الهم والغم . ولما رأى نفسهُ عاجزًا عن مسك القلم اخذ يبكي كالولد الصغير لانهُ تيقن انهُ سيموت مديونًا . ولكن شريدن المذكور آنفًا كان يستخف بالدين والمدايين اشدَّ الاستخفاف ويحتال على الشَّرط الذين يأتونهُ ليتقاضوا الدين منهُ فيقيمهم بين خدمهِ ليناولوا الطعام على مائدتهِ . وجاءهُ واحد من المدايين يسترفد فهرأ من كثرة ما قُدِّم لهُ فقال لصاحبهِ اكتبهُ على رق الغزال لانهُ سيبقى في يدك الى ما شاء الله من الزمان

هذا داء الدَّين الذي خرَّب بيوتًا كثيرةً واضعف قوة الممالك . ومداواتهُ سهلة في اولهِ ولكن اذا تمكَّن من صاحبهِ لم يقف في طريقهِ مال قارون ولا نجا الانسان منهُ الاَّ بالمنون